

القولاء

لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قسيم الجوزية

٦٩١ - ٥٧٥١ هـ

حَقَّقَهُ وَخَرَجَ أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

بشير محمد عيون

التوزيع
مكتبة المؤيد
ص. ب. ١٠ - الطائف

الناشر
مكتبة إزالتين
ص. ب. ٢٨٥٤ - دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام ، محيي السنة قاصع البدعة ، أبو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية ، رحمه الله ورضي عنه :

١ - قاعدة جليلة :

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه^(١) ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ ، ومحل قابل ، وشرطٍ لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظٍ وأبينه ، وأدله على المراد .

فقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة

(١) أي أقرأ القرآن وكأنه يتنزل عليك .

إلى ها هنا ، وهذا هو المؤثر .

وقوله : ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل ، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن الله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ [يس : ٦٩ - ٧٠] ، أي حيّ القلب .

وقوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي وجّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثر بالكلام .

وقوله : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب . قال ابن قتيبة^(١) : « اسْتَمَعَ كَتَابَ اللَّهِ وَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ وَالْفَهْمُ ، لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا سَاهٍ »^(٢) وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب ، وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله . فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحيّ ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر .

فإن قيل : إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه ، فما وجه دخول

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، أبو محمد ، من أئمة الأدب ، ولد ببغداد سنة ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ، ثم ولي قضاء « الدينور » مدة فنسب إليها ، وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ ، له تصانيف كثيرة ، منها : « عيون الأخبار » و « الشعر والشعراء » و « مشكل القرآن » و « تفسير غريب القرآن » و « المعاني الكبير » و « الأنواء » و « تأويل مختلف الحديث » و « غريب الحديث » و « دلائل النبوة » و « أدب الكاتب » وغيرها .

(٢) غريب القرآن ص ٤١٩ وفي اللسان : وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي أحضر سمعه ، وقلبه شاهد لذلك غير غائب عنه .

أداة « أو » في قوله : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ ، والموضع موضع واو الجمع لا موضع « أو » التي هي لأحد الشيئين ؟

قيل : هذا سؤال جيد ، والجواب عنه أن يقال : خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو ، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه ، تام الفطرة ، فإذا فُكّر بقلبه ، وجال بفكره ، دلّه قلبه وعقله على صحة القرآن ، وأنه الحق ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن ، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة ، وهذا وصف الذين قيل فيهم : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [سبأ : ٦] . وقال في حقهم : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور : ٣٥] . فهذا نور الفطرة على نور الوحي ، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي .

قال ابن القيم : وقد ذكرنا ما تضمّنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية »^(١) . فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن ،

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى في « اجتماع الجيوش على غزو المعطلة والجهمية » ص ٧ - ٨ :

فصل : وقوله تعالى : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن ، كما قال أبي بن كعب وغيره ، وقد اختلف في مفسر الضمير في نوره ، فقيل : هو النبي صلى الله عليه وسلم ، أي مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : مفسره المؤمن ، أي مثل نور المؤمن ؛ والصحيح أنه يعود على الله سبحانه وتعالى . والمعنى مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده وأعظم عباده نصيباً =

من هذا النور رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور - وهو وجه الكلام - يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم لفظاً ومعنى . وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه ، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله ، فيضاف إلى الفاعل والقابل ، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة ، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل ، فالفاعل هو الله تعالى مفيض الأنوار ، الهادي لنوره من يشاء . والقابل العبد المؤمن ، والمحل قلبه ، والحامل همته وعزيمته وإرادته ، والمادة قوله وعمله ، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم . اهـ .

قال المصنف رحمه الله تعالى في « الوابل الصيب » ص ١٠٤ - ١١٢ من طبعتنا - مكتبة دار البيان بدمشق :

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور في قلب عبده مثلاً لا يعقله إلا العالمون ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

قال أبي بن كعب : مِثْلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ الْمُسْلِمِ .

وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به ، وذكره ، وهو نوره الذي أنزله إليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله في قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق له منكرون ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطي نوراً على إبهام قدمه ، يضيء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا ، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً ، ولما لم يكن للمناق نوره ثابت في الدنيا ، بل كان نوره ظاهراً ، لا باطناً ، أعطي نوراً ظاهراً ماله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله عز وجل لهذا النور ، ومحله ، وحامله ، ومادته مثلاً بالمشكاة ، وهي =

= الكوّة ، في الحائط ، فهي مثل الصدر ، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شُبّهت بالكوكب الدُرِّي في بياضه وصفائه ، وهي مثل القلب ، وشبهت بالزجاجة لأنها جمعت أوصافاً هي في قلب المؤمن ، وهي : الصفاء ، والرقّة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة ، والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله تعالى ، ويغلب عليهم ، ويشد في الحق ويصلب فيه بصلابته ، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعد وتعاوضها ﴿ أَشْدَّاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] . وفي أثر : « الْقَلُوبُ آيَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ ، فَأَحْبَبُهَا إِلَيْهِ أَرْقُهَا وَأَصْلَبُهَا وَأَصْفَاَهَا » .

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقيض . أحدهما : قلب حجري قاسٍ لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا برّ ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل ، لا عالم بالحق ، ولا راحم بالخلق . وبإزائه قلب ضعيف مائي ، لا قوة فيه ، ولا استمسك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير في غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه ، من قويّ وضعيف ، وطيبٍ وخبيث . وفي الزجاج مصباح ، وهو النور الذي في الفتيلة ، وهي حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهوزيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن التي تصيها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .

وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن ، هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء ، فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن . ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت بها إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نوراً على نور .

وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحي ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه ، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة ، فصار نوراً على نور ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثراً ، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما =

شهدت به فطرته ، فيكون نوراً على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة . فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة، ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة، فذكر سبحانه وتعالى نوره في السموات والأرض ، ونوره في قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذي استنارت به البصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعيش فيه آدمي ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يتكوّن حيث النور ، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ، ولا يتكون البتة ، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد ، لا حياة له البتة ، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه .

والله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور ، كما في قوله عز وجل : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] وكذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وقد قيل : إن الضمير في ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ عائد إلى الأمر ، وقيل : إلى الكتاب ، وقيل : إلى الإيمان ، والصواب : أنه عائد إلى الروح أي : جعلنا ذلك الروح الذي أوحيناه إليك نوراً ، فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ، وجدت الاضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة ، وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مُضْمَجَل .

فلهذا يضرب سبحانه وتعالى المثليين : المائي والناري معاً ، لما يحصل بالماء من الحياة ، وبالنار من الإشراق والنور ، كما ضرب ذلك في أول سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٧] وقال : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل : بنارهم . لأن النار فيها الإحراق [و] الإشراق ، فذهب بما فيه الإضاءة والاشراق ، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق .

وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرّها وأذاها وسمومها ووهجها في الدنيا ، فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة ناراً موقدة تطلّع على الأفتدة . فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان في الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو حال المنافق عرف ثم أنكر ، وأقر ثم جحد ، فهو في ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى في حق إخوانهم من الكفار : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : ٣٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يِعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، وشبه تعالى حال المنافقين في خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومنازه ، قد شاهدوا الضوء ، ورأوا النور عياناً ، ولهذا قال تعالى في حقهم : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٨] إليه ، لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه .

وقال تعالى في حق الكفار : ﴿ فَهُمْ لَا يِعْقِلُونَ ﴾ لأنهم لم يعقلوا الإسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون في ظلمات الكفر ، صم بكم عمي ، فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً ، وإلى الإيمان وحقائقه منادياً ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً ، وإلى طريق الرشاد هادياً . لقد أسمع منادي الايمان لو صادف آذاناً واعية ، وشفّت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً من غيرها خالية ، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات ، فأطفأت مصابيحها ، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام ، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة ، و« ما لجرح بميت إيلام » .

والمثل الثاني المائي قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرُوقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٩] الصيب : المطر الذي يصب من السماء ، أي : ينزل منها بسرعة ، وهو مثل القرآن الذي به حياة القلوب ، كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، فأدرك المؤمنين ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة التي لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات =

والمثلثات التي حذر الله بها من خالف أمره ، وأخبر أنه منزَّلها بمن كذَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على اللأواء ، أو الأوامر الشاقة على النفوس التي هي بخلاف إرادتها ، فهي كالظلمات والرعد والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس لذلك ، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه ، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقاً يكاد يخطف البصر ، ورعداً عظيماً وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه في أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره ، لأن بصره أضعف من أن يثبت معه ، فهو في ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى في ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيراً لا يدري أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيَّب الذي به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو في نفسه ، بل لا يدرك إلا رعداً ، وبرقاً ، وظلمةً ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفرع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيَّب ، وعلم ما يحصل به من الخيرات والحياة والنفعة ، وأنه لا بد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيَّب .

فهذا مثل مطابق للصيَّب الذي نزل به جبريل صلى الله عليه وسلم من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحيى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيَّب من الماء حكمةً بالغة وأسباباً منتظمة نظمها العزيز الحكيم .

فكان حظ المنافق من ذلك الصيَّب سحابه ورعوده وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، فاستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ، وشك فيما تيَّنه المبصرون العارفون ، فبصره في المثل الناري كبصر الخفاش نحو الظهيرة ، وسمعه في المثل المائي كسمع من يموت من صوت الرعد . وقد ذُكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد .

وإذا صادفت هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ، جالت فيها وصالت ، وقامت بها وقعدت ، واتسع فيها مجالها ، وكثر

فيجدها كأنها قد كتبت فيه ، فهو يقرؤها عن ظهر قلب . ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد ، واعي القلب ، كامل الحياة ، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحيّ الواعي ، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام ، وقلبه لتأمله ، والتفكر فيه ، وتعقل معانيه ، فيعلم حينئذ أنه الحق .

فالأول : حال من رأى بعينه ما دُعي إليه وأخبر به .

والثاني : حال من علم صدق المخبر وتيقنه ، وقال : يكفيني خبره ، فهو في مقام الإيمان ، والأول في مقام الإحسان . هذا قد وصل إلى علم اليقين ، وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين ، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام .

بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ، والأرض من دويانها ، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم ، والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمُكثِّرين لسوادهم عدداً ، وما أقلمهم عند الله وأوليائه قدراً .

ولعموم البلية بهم ، وضرر القلوب بكلامهم ، هتك الله أستارهم في كتابه غاية الهتك ، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : (ومنهم . . . ومنهم . . . ومنهم . . .) حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم ، وظهرت أسرارهم .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول سورة ﴿ البقرة ﴾ أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر في أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفي أوصاف الكفار آيتين ، وفي أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فانهم من الجلدة ، مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذي قد تأبد بالعداوة ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى مزابلته ومفارقته .

فعين اليقين نوعان : نوع في الدنيا ، ونوع في الآخرة . فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين . وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار ، وفي الدنيا بالبصائر ، فهو عين يقين في المرتبتين .

٢ - فصل

وقد جمعت هذه السورة^(١) من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ، ويُغني عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ؛ فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة ، وانقسام الناس إلى هالك شقي ، وفائز سعيد ، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء . وتضمنت إثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب . وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى . والعالمين : الأكبر ، وهو عالم الآخرة . والأصغر ، وهو عالم الدنيا . وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته ، وحاله عند وفاته ويوم معاده ، وإحاطته سبحانه به من كل وجه ، حتى علمه بوساوس نفسه ، وإقامة الحفظة عليه ، يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وأنه يوافيه يوم القيامة ، ومعه سائق يسوقه إليه ، وشاهد يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ٢٣] . أي هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته ، فيقال عند إحضاره : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق: ٢٤] . كما

(١) أي سورة ﴿ق﴾ .

يُحْضَرُ الجاني إلى حضرة السلطان ، فيقال : هذا فلان قد أحضرته ،
فيقول : اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا
الجسد بعينه الذي أطاع وعصى ، فينعمه ويعذبه ، كما ينعم الروح التي
أمنت بعينها ، ويعذب التي كفرت بعينها ، لا أنه سبحانه يخلق روحاً
أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله مَنْ لم يعرف المعاد الذي
أخبرت به الرسل ، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنًا غير هذا البدن من
كل وجه ، عليه يقَعُ النعيم والعذاب . والروح عندهم عرضٌ من أعراض البدن ،
فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت
عليه الرسل ودلَّ عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى . وهذا في
الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول مَنْ أنكره من المكذبين ، فإنهم لم
ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أُخَر غير هذه الأجسام يعذبها
وينعمها ، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئاً بعد شيء !
فكل وقت يخلق الله سبحانه أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التي فنيت ،
فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً ؟ وإنما تعجبوا من عَوْدِهِمْ
بأعيانهم ، بعد أن مزَّقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً^(١) ، فتعجبوا أن يكونوا
هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : ﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ ﴾ [الصفات : ١٦] ، وقالوا : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق :
٣] .

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثاً ولا

(١) قال تعالى : ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ *
قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ - ٧٩] .

رجعاً ، بل يكون ابتداءً ، ولم يكن لقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق : ٤] ، كبير معنى . فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر ، وهو : أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء ، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرُّقها وتأليفها خلقاً جديداً ، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه ، وكمال قدرته ، وكمال حكمته ، فَإِنَّ شَبَّهَ الْمُنْكَرِينَ لَهُ كُلُّهَا تَعُودُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميُّز شخص عن شخص .

الثاني : أن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : أن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو أن الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء ، هكذا أبداً ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك ، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

أحدها : تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب مَنْ قَالَ : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ - ٧٩] . وقال : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٨٥ - ٨٦] وقال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق : ٤] .

والثاني : تقرير كمال قدرته ، كقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [يس : ٨١] . وقوله : ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٤] ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٦] .

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] .

الثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الدخان : ٥] . وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِاطْلَآءٍ ﴾ [ص : ٢٧] . وقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] . وقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ - ١١٦] . وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرح ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه منزّه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم

أمرهم ﴿ فَهَمُّ فِي أَمْرِ مَرِيحٍ ﴾ [ق : ٥] مختلط لا يحصلون منه على شيء .

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه .
وحسنه والتتامه ، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض ، وكيف بسطها
وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها
من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه
ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصّر
بها ، تذكر ما دلّت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ،
فالناظر فيها يتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانياً ، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد
منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكير في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم
ومراكبهم وجناتهم وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى
أنبتت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ، ما بين أبيض وأسود وأحمر
وأصفر وحلو وحامض ، وبيّن ذلك مع اختلاف منافعها وتنوع أجناسها ،
وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها
ومقاديرها . ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى
على المتأمل : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : ١٦٤] ثم قال :
﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق : ١١] ، أي مثل هذا الإخراج من الأرض
الفواكه والثمار والأقوات والحبوب = خروجكم من الأرض بعدما غيبتم
فيها .

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في

كتابنا « المعالم »^(١) ، وبيّنا بعض ما فيها من الأسرار والعبر .

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ ، وأبعده عن كل شبهة وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وشمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم ، فأهلكهم بأنواع الهلاك ، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رُسُلُهُ إن لم يؤمنوا ، وهذا تقرير لنبوتهم ، ولنبوة مَنْ أخبر بذلك عنهم ، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب ، بل أخبر به إخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب . ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات ، بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان ، وتناقضته القرون قرناً بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ [ق : ١٥] ، يقال لكل مَنْ عجز عن شيء : عيي به ، وعيي فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر^(٢) :

عَيُّوا بِأَمْرِهِمْ ، كَمَا عَيَّتْ بِيَصَّتِهَا الْحَمَامَةُ

(١) انظر « أعلام الموقعين عن رب العالمين » ١ / ١٥٠ - ١٩٠ . وهو من أجل كتب الإسلام .

(٢) هو : عَيْدُ بن الأبرص الأسدي : كان شاعراً جاهلياً ، قديماً من المعمرين وقتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه في قصة مشهورة انظر تفصيل القصة في الخزانة : ٤ / ٥٠٩ - ٥١١ . وانظر ترجمته في الشعر والشعراء ١ / ٢٦٧ ، الأغاني ١٩ / ٨٤ - ٨٩ ، والأمال ٣ / ١٩٥ - ١٩٦ ، والأعلام للزركلي ٤ / ١٨٨ . وغيرها .